سيكولوجيا الفن 9.آليات الدفاع

ج م: المجموعة الثانية
حبيب بن مالك يتبع

مفهوم آليات الدفاع:

آليات الدّفاع أو استراتيجيات الدفاع أو ميكانيزمات الدّفاع، كلها مصطلحات تحيل إلى واحد من أهم مفاهيم التحليل النفسي . و هو إجراء إلى حدّ ما لاإرادي و لاشعوري و كامن ، يستند الفرد إليه من دون وعي مباشر به لحماية نفسه من كلّ ما يحتمل أن يهدد كيانه البيوسيكولوجي، و يرتبط -أي الإجراء- بفكرة الصراع بين متطلبات الهو الغريزية من جهة و مقتضيات الأنا الأعلى من جهة أخرى.
يعدّ سيغموند فرويد أوّل من انتبه إلى المسالة و سبق و أن أشار إليها في دراسة له (**1894**) موسومة بـ **"psychonévroses de défenses"** "العصاب النفسي الدفاعي":
نعثر في مؤلف فرويد على عشرة إجراءات سيكولوجية "يستخدمها الأنا في الصراعات المؤهلة لأن تؤول إلى عصاب"[1]. فالأمر يتعلّق ههنا بعمليات تتجسد ،ظاهريا، من خلال تمظهرات أو تعبيرات رمزية تشكّل بالنسبة إلى التحليل النفسي أعراضا لآثار صدمات معينة سابقة أو صراعا مثلما أشرنا مرشح لأن يتطوّر إلى حالة من حالات العصاب.
ومعلوم أنّ هذه الآليات طوّرتها فيما بعد ابنة سيغموند فرويد، Anna Freud أنّا فرويد (1982/1895)،و هي في وظيفتها تختلف عن استراتيجيات التأقلم التي تتميز بكونها واعية و مبرمجة و إرادية و ترتبط تحديدا بالإطار الاجتماعي للفرد ضمن منظور التكيف معه. فالآليات الدفاعية تحليلية محضة و لها علاقة بالحياة النفسية للفرد بصراعاته و بميوله أو بغرائزه و بالكيفيات اللاشعورية التي يلجا إليها لتذليل حالات الحرمان و الشعور بالذنب. فالغريزة مسار يتسم بكونه جامع مندفع يوجه الشخص نحو هدف محدّد .

و تأسيسا على آراء والدها في المسألة، أحصت المؤلّفة في كتابها الذي نشرته بفيينا سنة **1936** و الموسوم بـ :"الأنا و الآليات الدفاعية" و عبر معايشتها لبعض الحالات العصابية، مجموعة أنواع من العمليات الّتي يتصدرها الكبت، نظرا لما يمثله بالنسبة إلى الجغرافيا النفسية، و الّذي يعرّف كسبيل إمّا للإبقاء على التّمثلات من غرائز غير مشبعة و ذكريات أليمة قديمة... -تمثلات قلنا سابقا أنّها تتسم بالحركية- بمنطقة اللاوعي و إمّا للحيلولة دون إمكانية ولوجها لصعيد الشعور بضغط من المتطلبات الأنا الأعلى. غير أنّ الكبت يتمظهر من خلال إبداء مقاومة و هو يعبّر من ناحية أخرى عن فشل مسار السعي لاقتحامه منطقة الشعور لذلك سيتحوّل هذا الفشل، من خلال، استبدال أو تحريف ما إلى عارض

[1]Sigmund Freud, cité par De Julien-Daniel Guelfi, Jean-Nicolas Despland, Bertrand Hanin, J. Christopher Perry, in mécanismes de défense : principes et échelles d'évaluation, Elsevier masson ,2009 p9

أو قرينة تمثل الإحساس بالإحباط و أيضا القلق، و الواضح أنّ هذه الآلية إلى جانب آلية التسامي هي أكثر العمليات العقلية التي تسوجب مجهودا مضاعفا من الأنا.

و فيما يلي عرض موجز و تعليمي فقط لمجموعة من الآليات الدفاعية:

1- **التسامي**: أو استبدال الهدف الغريزي. بمعنى تحويل الغريزة المنبوذة اجتماعيا أو أخلاقيا أو جماليا نحو موضوع محمود و يلقى رضا الآخرين، على غرار المواضيع الفنية بوجه خاص مثلما سنرى لاحقا، و تحديدا مع ميكائيل أنجلو أو ليوناردو دا فينتشي أو سالفادور دالي. و هذا الأمر الكفيل بضمان على الأقلّ قدر معيّن من التوازن ينجم عن طبيعة التنشئة الاجتماعية للفرد و أيضا الأخلاقية. فكلّ هؤلاء الفنانين (و بشكل نوعي عند ليوناردو دا فينتشي، لأنّه لم يبدع في الفن فحسب و لكنّه أبدع حتى في المجال العلمي، بل كان في العلم، مثلما يشهد عليه الفنان نفسه نقلا عن جيورجيو فساري، أكثر عطاء من مجال الرسم)، وجدوا في الفن ملاذهم و عزاءهم من الحرمان .

2-**الإسقاط** : و هي عملية يلقى من خلالها الأنا مجموعة من التمثلات أو من الخصائص أو المشاعر و حتى الصفات الموجودة أصلا لديه، على شخص آخر.

3- **النكوص:** و هو مسار يعيش من خلاله الأنا مرحلة من مراحله السابقة، كمرحلة الطفولة أو مرحلة الشباب مثلا. فحاضر الفرد ضمن هذا السياق فيض من الإحباط و القلق و مشاعر الأسى، و قد يحن المرء بهذا المعنى إلى مرحلة أكثر سعادة و ارتياحا و أمانا.

4- **التماهي أو التقمص** :

و هو مسار يسعى من خلاله الفرد إلى استيعاب صفة أو خاصية أو ميزة ما، هي في الأصل لشخص آخر ليستقرّ على نموذج هذا الأخير، على شاكلة الأب مثلا أو الأم أو...سيضمن له هذا الإجراء شيئا من الطمأنينة و الراحة. فالتماهي يستهدف في كثير من الأحيان موضوعا يكون مصدرا للرعب و القلق بالنسبة للفرد، فنجده يتقمص ثوب شخصية سببت له كثيرا من الألم.

5- **العقلنة:**

إخضاع تصرّف ما أو سلوك لتفكير أو منطق ما. يتعلّق هنا إن صح القول بتبرير يغطي لاشعوريا الدّوافع اللاشعورية الحقيقية الكامنة وراء عمل ما لا يستند إلى مقوم أخلاقي أو لا يلقى قبولا لدى الآخرين. هذا التبرير يحاول أن يقنع الفرد به نفسه و الآخرين لكنّه في واقع الأمر لا يعكس حقيقة الأشياء. ففي هذا الإطار مثلا نجد كثيرا من الأعمال الفنية التي قد لا تتفق مع منظومة قيم ما، فترى أصحابها يبحثون هنا و هناك من المبرّرات لكي يشرعون للإقدام عليها.

6- **الإنكار:**إنكار واقع معيّن، أو إنكار وجوده لأنّه مصدر للاستهجان أو عدم الارتياح، على الرغم من أنّ جميع الدّواعي و الشواهد تدفع بالضرورة إلى التسليم به. سنعود لهذه المسالة حينما سنتعرّض لتحليل بعض الأمثلة.